(١١)

قلوب وقوالب

حديث الجمعة

٢٤ جمادى الأولى ١٣٨١ هـ - ٣ نوفمبر ١٩٦١ م

باسم الوجود باسم الإطلاق باسم الله

باسم المحيي باسم الكلمة باسم الرحمن

باسم الروح باسم الحياة باسم الرحيم

باسم المعنى باسم الدوام باسم الإنسان

باسم الله الرحمن الرحيم

نتوجه بقلوبنا فارغة عاملة واعية إلى القلوب مستجيبة راعية. فكل قلب راع لصاحبه ومن صحب، وكل قلب ملب لمناديه ومن أحب، وكل قلب أمين على ما يتواجد فيه مما تواجد هو فيه.

إن القلب في ذات الإنسان رَحِمُه، فيه رحمته وفيه مرحمته وفيه حياته، وكل ذات برحمتها وسويداء قلبها أُنثى نفسها ما كان لها رب من عاقلها وعقلها، {إن يدعون من دونه إلا إناثا}[1] حتى يسويها العاقل لها فيستويها عقلا سويا وبشرا ظاهرا مرئيا، فيقومها رجلا فتيا.

فهلا عرضنا أرحامنا من سويداء قلوبنا للقاحها من ماء السماء ومن نور الوجود، تستقبله العقول الواعية حتى نكون بذواتنا أرضا طيبة لشجرة طيبة أصلها ثابت في أرضها الطيبة بها تتواجد، وفرعها في السماء يتصاعد، تؤتي ثمارها في دورة الزمان، أقباسا من نور الله، وكلمات هي وجوه الله شمسها محرقة، وثمارها مشرقة وظلالها مغدقة.. تنزل الملائكة والروح سكينة ليلها بإذن ربهم من كل أمر.. كتابا لله منشورا في كل يوم لوجوه لله منظورة بضحاها في عترة لأصلها - صنو كتابها - مدفونة في دثارها.. كنوز الله بهياكل الله لأناسي الله.. في أوادم الله من بشرية الله.

عباد الله: اذكروا الله لا بلسان مقالكم، ولا باضطرار أحوالكم وفاقة تكوينكم، ولكن اذكروا الله متأملين متفكرين متدبرين بعقولكم التي هي فيه وهو فيها. وتأملوا في قول من قال: (نكحت نفسي بنفسي وكنت أفراحي وعرسي)[٢] وتدبروا في حكمة من قال: (ما كانت صلاتي إلا ليا)[٣]

إن الإنسان في أرضكم هذه - وهي الأرض المظلمة وهي الأرض الحزينة - إنما هو في أرض الرحم وأرض الرحمة والمرحمة وأرض الاختيار والرضاء، يصوره الله فيها كيف يشاء، وهو الذي يصوركم في الأرحام في سكينة الظلام يطويكم، فتهيأوا لعقولكم - وهي أصل دينكم - بالله رباطها، حتى يثمر في الله فعلها سماء معانيكم، وزيت قلوبكم، وجذوة حياتكم لظلام صدوركم منيرة. أنتم سدرة المنتهى لمسماه فينمو عالمكم الصغير ليحقق ما خلق له، فيكون عالما كبيرا لرب العالمين، فيتحقق بوصف العبودية عالم وجودكم لمن عبَّده لنفسه، ولمن أوجده بحقه، ولمن أحياه برحمته كلمة الله لخلقه فيه.

إن (الأنا) الإنساني في الذات الإنساني يصاحب لعنوانه عليه العقل فيه، كما يصاحب النفس فيه، كما يصاحب الذات فيه. وإن لهذا (الأنا) انطلاق في معية ما صحب من الغني الجامع في وجود الأنا المجتمِع في ذات البشر الآدم، ومن الذات ومعانيها لأناها يكون البدء للتواجد ويبدأ المسير والانطلاق، وإلى الذات تُنسب حركة العقل في مرتقاه، كما بمباعدتها يتحدد الاتجاه. فالسموات ما فوق هذه الذات ينطلق إليها (الأنا) العقل سابحا راشدا، والأراضين من سِفلها بتعددها منسوبة لمعناه بتكاثر النفوس لنفسه بالنفوس في سفلها عن هذا (الأنا) الجامع، وهو ما يسفلها بالتخلف من العوالم النفسية المعتِمَة، أو من العوالم الحمراء المتكبرة.

إن هذا النوع من التواجد الذي نحياه في البشرية يتكاثر فيه الإنسان بنوعه فتنطلق ذات (الأنا) من ذاته المادية ووجوده الحيواني، متعلقة بتكاثرها فيه ملهيها تكاثرها عن انطلاقها إلى الأعلى، وركب الحياة يسير في مرتقاه فتتخلق في حركتها بما يعطي انطلاقا إلى أسفل الحياة في ركبها.

فالكائن البشري في هذه الأرض سعيد مرتق ما انطلق إلى علويات الحياة وسموات ذاته غير متثاقل إلى أرض معناه من وجوده وتكاثره. فإذا كان له في مرتقاه مزيدا من وعي ومكنة رَعى بقاياه وهي على ما كان فيه من حال، فنزل ليستخلص انطلاقاته المتخلفة إلى سفله، فكان له إلى أسفله انطلاق، مستخلصا به ما انحدر منه إلى سفل تكوينه من عالم نشأته أو من عالم بدئه.

فإذا رَعى مِن أبعاضه من جدَّد نفسه به حيث كان من عالم بدء وجوده وحياة نشأته انتشر بالنور الذي أنزل معه والذي نزل به. بالحق أنزله الله فكان طريقا مستقيما كلما ارتقت به ذات تجدد في مولد ذات، وبالحق نزل فانتشر في الناس من أبنائه بأنوار معبوده ومشهوده وموجوده من قديمه من

الرفيق الأعلى، فكان ذكر الله للعقول في سموات مرتقاه، وسفينة للنفوس في عالمها من البشرية، رسولا مخلصا لها من انحدارها أسفل ركب الحياة فكان ظلا ذي ثلاث شعب في انطلاقه.

هكذا كان محمد الله. أُرسل للأسود والأحمر والأبيض فانطلق إلى عوالم الله من الإنس والجن والبشر.. رسولا لله وظلا لله فانطلق إلى العالم الأبيض من الإنس والأحمر من الجن رسولا لله وظلا لله، وانتشر في عالم البشر بنور الله، يد الله ووجه الله وحق الله ورسول الله وظل الله.. رحمة للعالمين من العوالم البيضاء والعوالم السوداء والعوالم الحمراء.

رُفع ذكره، ونُصر أمره، وانتشر خبره، وخلد اسمه، وتجددت ذاته، وانتشرت في الناس رحمة من الله صفاته. عبد الله وحق الله، شمس ناره مقدسة، وقمر نوره لطيفا مسعدا مؤنسا، وأرض آدمه متكاثرا متعددا متقادما متجددا. الدين في معرفته، والسلام في الدخول في سلمه، والكفر في حربه، والهلاك في خصومته، والضياع في تجاهله، والإيمان في البحث عنه، والمعرفة في لقائه، والنجاة في متابعته والإسلام في التسليم له.

ماذا عرفنا عن رسول الله إلا لفظا تلوكه الأفواه، وتردده الألسنة، وتستقبله الآذان؟ بلا قيام له يتواصى عليه، ولا لقاح منه يُتعرض له، ولا بعث به يرجى من ربه.

لا يغيب بابه في قبلته ولكن من المستقبل ومن الناظر؟ سماء البشرية بمراقيها ولكن أين العارج ومن الطارق؟! حضرة الربوبية بمغانيها.. فأين العارف ومن الطالب؟! وجه العناية الإلهية.. فأين الناظر ومن الساري؟! حوض القرب لماء الحياة.. فأين الساقي ومن الوارد؟! كنوز الغنى.. فأين الفقير ومن الفاتح؟! عرفات المعرفة.. فأين الحجيج ومن الصاعد؟! بيت الطواف ومدينة الطائف.. فأين المعتمر ومن العاكف؟! مصباح الحياة لمشكاة الصدور.. فأين المنشرح ومن الشارح؟! بعث الموتى بالحياة.. فمن الميت وأين الحي؟! {أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها}[٤] (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا)[٥]. وإذا انتبهوا دخلوا في الحياة.. كسبوا الحياة.. كانوا بين الأحياء.. كانوا مع من يسمونهم الموتى.

إن الدار الآخرة لهي الحياة. وإن الدار الآخرة لهي أقرب إلى الناس من أنفسهم ومن دنيا نيامهم. إن الدار الآخرة تطوي دنياهم وتقوم بها دناهم من أنفسهم.. فهي أقرب إليهم من الدنيا يقومونها نياما بحياة خيالية يتوهمونها. إن الحياة الآخرة - وهي الحيوان - لأقرب إلى الناس من حبل الوريد. إنها القائمة على كل نفس، إنها الباعثة المنبعثة في كل ذات، إنها الرادة لكل نفس إلى أرض نشأتها لاستكمال رسالتها وتحقيق حقيتها.

إن الأولى والآخرة إنما هما الزمان سجال. إنما هما على الإنسان اختلاف الأمور والأحوال. إنهما تعاقب الليل والنهار. إنهما له موسما الزرع والحصاد. يتعاقبان بلا ابتداء ويقومان في الإنسان بلا انتهاء.

إن من الناس على الأرض من هم في أخراهم، كما هم في دنياهم. فإن نفضوا ظلام نفوسهم وغبار ذواتهم عن معاني وجودهم بمعزل عن كليات الوجود، علموا ما قدمت نفس وأخرت. هم من حاسبوا أنفسهم قبل أن تفاجئهم نفوسهم بمحاسبتهم. أقاموا عقولهم محاسبة، قبل أن تقوم عقولهم مجانبة، ونفوسهم محاسبة، (من نوقش الحساب فقد هلك)[٦].

إن النفس تضاف إلى العقل مسودة ما سعد صاحبها، فإذا عكس الوضع وسخرت العقل لمرادها من كبريائها ومن ظلمها لنفسها، ففي عكس الأوضاع ضياع صاحبها. إن العقل إذا كان سجين الذات الآن فستفنى الذات التي لها بدء والتي لها انتهاء، وسينطلق العقل ويتحرر من سجن ذاته.. فماذا سوف تكون علاقة النفس به؟ إن صاحبته في هذه الدنيا سجينا مع سجين فإنه مفارقها غدا بريئا من عملها وهي المدين، ومجانبها وتاركها لظلمتها وموهوم سيادتها، متثاقلة إلى الأرض تجتذبها، وتفرض عليها سلطانها، ذليلة لا تنطلق وراء العقل ولا تتحرر من فاقة الذات وسجن الأنا.

إن الذين كفروا بعقولهم.. إن الذين كفروا بربهم.. إن الذين كفروا بسيدهم.. إن الذين كفروا بعقولهم من نور الله.. أعمال نفوسهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حياة - ولا حياة فيه - إنما هو عمل مردود على صاحبه. فإذا جاءه صاحبه الظامئ لم يجده شيئا ووجد الله عنده هو وليس عند الشراب. عقله يجانبه، وعقله يخاصمه، وعقله لا يعترف بصحبته، ولا يحن إلى قديم وحدته. ذهب العقل لعالمه من النور، وذهبت النفس إلى عالمها من النار، وذهبت الذات إلى عالمها من التراب، وبقيت الأنا بعملها من الظلام.

إن للعقل نمو ومرتقي وسلوك. وإن للنفس تطور ونمو وسلوك. وإن للذات انعدام وتخلق وتصور وتطور. كل مُولى إلى وجهته، فكل عامل يعمل في حدود طبائع وصفات عالمه الأصيل وشرعته. وكل قائم في حقه بحقه ما طلب الحق لنفسه، وما آمن بالله واحدا - وإن تعددت وجوهه - أحدا - وإن تعددت أسماؤه وصفاته - فتوحد فيه بأمشاجه، فتطور سمعه إلى سماعه، وهديه إلى إسماعه. وتطور بصره إلى مشاهدته، وارتقى هديه إلى إشهاده.. فتطورت صفاته، وتطورت نفسه وذاته، فكان عالما كبيرا بذاته. وكان جمعا عديدا بنفسه، في اسم الله وذكر الله، فكان حقا راعيا بعقله.. وكان روحا منطلقا في الوجود المطلق بقدسه، يحسه ويقومه علما عليه به.. فيه.. هو علمه ومعلومه،

وعالَمَه وعالِمُه لنفسه فيه، ولمفرداتها به، ولوحدته في أناه من الهو.. عبدا قائما لمولاه.. عالما بمعناه.. رسولا لمن عناه.

هذا هو الإنسان على ما بشرنا به إنسان الله ورسوله لنكونه، في قوله (ما أعطيته فلأمتي)[٧]، هدانا إليه في قوله: {فاتبعوني يحببكم الله}[٨]، ووعدنا الله به على لسانه ما آمناه به قائم.. ومعنا متواجد.. فسألناه عبادا له عن ربه سيدا لنا وله، فحمل إلينا قول الله في قانون رحمته وفي قانون قدرته.. إن الله يقول لكم: إنه قريب وهو لكم سميع مجيب ويعلم منكم السر وأخفى، يجيب دعوتكم ما دعوتموه، ويحقق رجاءكم ما رجوتموه، ويلبي نداءكم ما طلبتموه.. فيكشف عنكم الغطاء فترونه في وحدانيته في شهود وجودكم من موجوده، وبشهود مقصودكم في معبوده.. بشهادة أن لا إله إلا الله.. وقد شهدتم أن محمدا رسول الله.. فإن شهدتم أن محمدا رسول الله أشهدكم محمد أنه لا إله إلا الله. وإن شهدتم أنه لا إله إلا الله أشهدكم الله أن محمدا رسول الله، {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان}[٩]. {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله..}[١٠].

على هذا قام الإسلام، وبه أفيض الإيمان، وبقيامه وجدت المعرفة، وبوجود المعرفة تم الخلاص.. فلا أولى ولا آخرة، ولا بشرى ولا إنذار، ولا حساب ولا عقاب، ولكنه الله وكفى، معكم أينما كنتم.

ها هي الأجيال في قديمها تصلنا وتُنطقنا لتُسمع الأجيال في جديدها بنا وبأبنائنا. إن الروحية في هذا العصر تأتي بالقديم من أزله على بعده قريبا لتخاطب به الجديد في أبده على بعده حاضرا. إنها أصل الأصول للإنسان في حقيته، وهي أصل الأصول للإنسان في خلقيته. وهي أصل الأصول لأم الكتاب تتعدد ما تعدَدت العقائد، وما تعددت الكتب، وما تعددت الرسالات، وما تعددت البدايات، وما تعددت الأوادم.. فهلا لبى الناس نداءها؟ وهلا أقبل الناس على ساحتها؟ وهلا دخل الناس في بيت أمانها فألبسوا سرابيلها تقيهم الحر وتقيهم البرد وتقيهم بأسهم؟

إنها رحمة الله المشهرة، إنها يد الله الظاهرة، إنها قبضة الله الآخذة بالنواصي والأقدام. إنها يد الله المنبسطة بالرحمة والحياة، إنها وجه الله المشرق بالحنان والجمال، إنها نور الله للسموات والأرض أن تزولا. فهل آمنها الناس، يمحون بالإيمان بها ظلام شهودهم، وظلم نفوسهم وموقوت وجودهم؟ إنهم على ما وجدوا عليه آباءهم لا يُعمِلون عقولهم، ولا يعرضون للسعادة نفوسهم، ولا يتحررون من سجن ذواتهم، إلا من رحم. وقليل من عباد الله الشكور، وكثير منهم الكفور.. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

نسأله برسوله أن يجعلنا من القليل من أهل شكره، وأن يقينا من الكثير من أشرار كفره. إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

اللهم أعتق رقابنا من النار. وأطلق عقولنا في سموات وجودك من أرض طاعتك. اللهم عرفنا إلى المثل الأعلى في السموات والأرض من كلماتك. اللهم اجمعنا على المثل الأعلى في الأرض وفي السموات من روح قدسك. اللهم خذ بيدنا في مستقيم طريقك. اللهم قنا شرور أنفسنا وشرور الأشرار من خلقك. اللهم لا تحكم فينا ذواتنا ونفوسنا وشهواتنا. اللهم اغفر لنا وتب علينا. اللهم برحمتك برسولك فارحمنا وبنور شهودك به فأشهدنا. اللهم إليك فانسبنا عبادا لك. اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم لقائك في دنيانا، ويوم لقائك في أخرانا، ويوم لقائك في معنانا. اللهم ولِ أمورنا خيارنا ولا تولِ أمورنا شرارنا بما كسبنا.

اللهم أنزل سكينتك على قلوبنا والسلم والسلام على أرضنا. اللهم آمنا في نفوسنا وفي جمعنا وفي أرضنا. لا إله إلا أنت سبحانك إنا كنا من الظالمين.

أضواء على الطريق

(إن جسمك ليس أنت. إنك روح خالدة. إنه لشيء ضروري أن يكون لكم مذكرون دائمون بأنكم مخلوقات روحانية وليست فيزيقية. أنتم الذين تعودتم القيام بأعمالكم الفيزيقية اللازمة لكيانكم المادي، يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة ودقيقة بعد دقيقة، تميلون لنسيان أن الفيزيقي ما هو إلا القشرة الخارجية. إنه ليس الحقيقة الداخلية. فالفيزيقي ليس سوى الثياب التي يلبسها الإنسان، هو الوسيلة التي يعبر بها عن نفسه في عالم المادة. إن جسمك ليس أنت إنك روح خالدة، جزء من القوة الحيوية التي تقبض على العالم كله، جزء من القوة التي شكلت النظام الشمسي كله، والتي تتحكم في المد والجزر، والتي تنظم الدورة الخالدة للفصول، التي تنظم كل نمو وتطور، التي تساعد الشمس لتشرق، والنجوم لتتلألأ. أنت خالد كالروح العظيم تماما، لأن ما تملكه أنت تملكه تلك القدرة، إنها نفس الصفة من حيث المنبع، وإن اختلفت من حيث الدرجة. لكنها هي نفسها من حيث الأساس. وهي تجاوز كل الاحتمالات المادية، تجاوز كل الحدود الفيزيقية. إنها أعظم من أي شيء نتصوره).

من هدي السيد الروح المرشد سلفربرش

مصادر التوثيق والتحقيق

١ سورة النساء - ١١٧

٢ من أبيات لمحي الدين بن عربي" نكحتُ نفسي بنفسي ... وكنتُ بعلي وعرسي".

٣ مقولة صوفية لم نستدل على مصدرها لكن معناها مفهوم في السياق.

٤ سورة الأنعام - ١٢٢

٥ "النَّاسُ نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا". قول للإمام عليّ كرم الله وجهه. المحدث: السيوطي. المصدر: الدرر المنتثرة.

٦ حديث شريف عن عائشة أم المؤمنين: "ليسَ أحَدٌ يُحاسَبُ إلَّا هَلَكَ قالَتْ: قُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِداءَكَ، أليسَ يقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: {فَأَمَّا مَن أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسابًا يَسِيرًا} قالَ: ذاكَ العَرْضُ يُعْرَضُونَ ومَن نُوقِشَ الحِسابَ هَلَكَ. صحيح البخاري.

٧ عبارة للسيد رافع يمكن تأمل معناها ومغزاها في السياق.

٨ سورة آل عمران - ٣١

٩ سورة البقرة - ١٨٦

١٠ سورة الحديد - ٢٨